الدرس التداولي في الفكر اللغوي القديم: ابن جني نموذجا

أ.د. أبو بكر العزاوي
كلية الآداب
جامعة مولاي سليمان ، بني ملال - المغرب

ملخص :

هناك مباحث تداولية مهمة وأصيلة في تراثنا العربي الاسلامي، وخاصة عند اللغويين والنحاة والبلاغيين والأصوليين أمثال سيبويه وابن جني والجرجاني والسكاكي والآمدي وغيرهم، وهذه المباحث تتعلق بظواهر تداولية عديدة مثل السياق والأفعال اللغوية، وأغراض الكلام والمقاصد والاستلزام الحواري، وأنماط المعنى المضمر وعلاقة البنية بالوظيفة، وغيرها من الظواهر.

وسندرس في هذا المقال بعض الظواهر التداولية عند ابن جني، من خلال كتابيه (الخصائص) و(المحتسب)، وخاصة ما يتعلق بمسألة وظيفة اللغة، وأيضا علاقة التركيب بالتداوليات، أو علاقة البنية بالوظيفة، انطلاقا من المبدأ التداولي العام: لكل مقام مقال، مع الإشارة إلى ظواهر تداولية أخرى مثل الاستلزام الحواري التخاطبي.

الكلمات المفتاحية: التداولية؛ التراث؛ ابن جني؛ التركيب؛ البنية؛ الوظيفة.

Abstract:

In ancient Arabic linguistic thought, original research concerning pragmatics and functionalism are found. Theses researches are found in the works of grammarians such as Sibawayh and Ibn Jinni, among rhetoricians such as Al-Jurjani and Al-Sekkaki, and also in other Islamic sciences. This research concerns several pragmatic phenomena such as context, speech acts, implicit, conversational implication, structure and function, and other phenomena. In this article, we will study a number of pragmatic phenomena in Ibn Jinni's works, and especially the function, and the relationship between syntax and pragmatics.

Key words : Pragmatics ; Ibn Jinni; Syntax; Structure; Function

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1692

مقدمة:

يسعى هذا البحث إلى إبراز بعض المباحث التداولية في أعمال ابن جني، خاصة كتاب (الخصائص)، وكتاب (المحتسب في تبيين شاذ وجوه القراءات و الإيضاح عنها)، وابن جني له كتب ومؤلفات كثيرة مثل (اللمع في العربية) و(سر صناعة الإعراب) و(المنصف) و(التصريف الملوكي) وغيرها، ولكنها مخصصة لقضايا النحو و الصرف و الأصوات.

وقبل الشروع في تناول الدرس التداولي عند ابن جني، سنحاول أن نعرف بالتداوليات، ولو بإيجاز.

لقد قدمت تعريفات عديدة للتداوليات، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر، الآتي[1] :

أ- التداوليات تدرس اللغة في السياق.

ب- التداوليات تدرس استعمال اللغة (L'usage).

ج- التداوليات تدرس اشتغال اللغة (Le fonctionnement).

د- التداوليات تدرس علاقة البنية بالوظيفة (أي بنية اللغة ووظيفتها التواصلية).

هـ- التداوليات تحاول أن تجيب عن الأسئلة التالية: من يتكلم؟ مع من؟ وفي أي زمان؟ وفي أي مكان؟ وما الغاية؟

وإذا حللنا هذه التعريفات، وجدنا أنها تتضمن كلمات من قبيل (السياق، الاستعمال، الوظيفة، العمل، الاشتغال،.. إلخ)، والمصطلحان البارزان هنا هما: السياق و الاستعمال، والسياق، حسب التعريف التقليدي، يتكون من العناصر التالية: المتكلم والمخاطب، الظروف الزمانية والمكانية، المقاصد والأهداف والمعرفة المشتركة، وسنحاول أن نركز، في بحثنا هذا، على بعض القضايا والمباحث التداولية، وأهمها وظيفة اللغة، وعلاقة البنية بالوظيفة.

1- وظيفة اللغة:

لابد، في البداية، أن نشير إلى أن اللسانيين عامة، يميزون بين الوظائف اللغوية و وظائف اللغة، وبالنسبة للنوع الأول، فإن الأمر يتعلق بوظائف داخلية، أي داخل بنية الجملة، وفي هذا السياق نميز بين الوظائف التركيبية (فاعل، مفعول...)، والوظائف الدلالية، أو الأدوار الدلالية(الحدث، المنفذ، المتقبل، الزمان، المكان، الأداة، الحال...)، والوظائف التداولية (البؤرة، المحور، الموضع، الذيل).

أما عندما نتحدث عن وظائف اللغة، فإننا نقصد بها ما تؤديه اللغة من وظائف داخل المجتمع، أو داخل مجموعة بشرية معينة، وقد تحدث اللسانيون واللغويون عن مجموعة من وظائف اللغة؛ الوظيفة التواصلية والرمزية والاجتماعية والإيديولوجية والجمالية والنفسية وغيرها، وأهم هذه الوظائف، وظيفتان اثنتان؛ وظيفة التواصل، ووظيفة التمثيل (أو التعبير عن الفكر).[2]

ولقد أثير نقاش كبير حول وظيفة اللغة: هل لها وظيفة واحدة، أم لها وظائف عديدة؟ وإن كان لها عدة وظائف: فما هي وظيفتها الأساسية؟ واختلف اللغويون والفلاسفة بخصوص هذا الموضوع، وانقسموا إلى فريقين: الفريق الأول، ويمثله نعوم تشومسكي و كارل بوهلر وآخرون، وهؤلاء يقولون: إن وظيفة اللغة هي التعبير عن الفكر و التمثيل له، أما الفريق الثاني، ويمثله التداوليون ورواد اللسانيات الوظيفية: (جاكبسون، مارتيني، دانش، ماتيزيوس، هاليداي، سيمون ديك و آخرين)، فيرى أن الوظيفة الأساسية للغة هي التواصل، ونعتقد أن ابن جني لما عرف اللغة بأنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»،[3] فإنه تبنّى وجهة نظر الوظيفيين والتداوليين في عصرنا الحالي، من حيث أنّ وظيفة اللغة التي ضَمَّنَهَا تعريفه هي التواصل.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1692

إذن هذا ملمح تداولي وظيفي عند ابن جني، ففي تعريفه إشارة إلى الوظيفة التواصلية للغة من جهة، وإشارة إلى ثنائية البنية والوظيفة من جهة أخرى، فقوله (أصوات) إشارة إلى بنية اللغة (ومعلوم أن اللغة أصوات وصرف وتركيب ودلالة...)، وقوله: (يعبر بها كل قوم عن أغراضهم) إشارة إلى وظيفة التواصل.

وهناك أيضا إشارة إلى الطابع الاجتماعي للغة، وهذا موقف متقدم عند ابن جني بالنظر إلى الزمن الذي قيل فيه هذا الكلام.

وننتقل إلى علاقة البنية بالوظيفة، أو المقال بالمقام في المبحث الموالي:

2- البنيـــة والوظيفة:

أصبح الدرس اللساني المعاصر يلح على ربط البنية بالوظيفة، والمقصود بالوظيفة هنا، هو الوظيفة الأساسية للغة، وهي التواصل بين أفراد مجموعة بشرية معينة، ولقد مرّ الدرس اللساني بمراحل عديدة، وكانت اللسانيات في المراحل الأولى، أي اللسانيات البنيوية واللسانيات التوليدية التحويلية، لسانيات صورية غير وظيفية، تركز اهتماماتها على بنية اللغة، ونقصد بالبنية هنا المستويات اللغوية الصوتية والصواتية والتطريزية الصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية، وكانت تهمل المستوى التداولي والوظيفي، ولكن مع ظهور التداوليات، واللسانيات الوظيفية بمختلف نماذجها النماذج الوظيفية التوليدية (نموذج الدلالة التوليدية ونموذج التركيب الوظيفي مع سوسومو كونو)، أو النماذج الوظيفية غير التوليدية، وهي كثيرة (جاكوبسون، هاليداي، سيمون ديك...)، أصبحنا ندرس بنية اللغة في علاقتها بالوظيفة التواصلية، ولا يمكن أن نتصور العكس. وأصبح هؤلاء يؤكدون أنه لا يمكن دراسة البنية بمعزل عن الوظيفة، والتيارات اللسانية المعاصرة تؤكد هذا أيضا، وأخصّ بالذكر هنا اللسانيات المعرفية ولسانيات الاستعمال.

ومسألة الوظيفة، أو ربط البنية بالوظيفية، وجدناها في الفكر اللغوي العربي القديم عند اللغويين والنحاة أمثال سيبويه وابن جني، وبوجه خاص وتحديدا ممثّلة عند البلاغيين و الأصوليين أمثال عبد القاهر الجرجاني و السكاكي و آخرين، فقد انتبه هؤلاء إلى أهمية البعد الوظيفي التداولي، واعتمدوه في مجالات عديدة، يتعلق بعضها بتعريف اللغة، ويتعلق بعضها الآخر بتفسير عدد كبير من الظواهر اللغوية مثل التقديم والتأخير والحذف والإضمار والبناء للمجهول وغيرها، إننا نجدهم يستخدمون مصطلحات من قبيل: العناية والاهتمام، والتخصيص، والتأكيد، والقصد، والغرض، والمتكلم، والاستعمال، ودلالة الخطاب، ومشاهدة الحال إلى غير ذلك، وهي مصطلحات وظيفية تداولية بالأساس.

وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على وعيهم بأهمية ربط التركيب بالتداوليات، أو البنية بالوظيفة من جهة، وبأن الوظيفة تحدد البنية، والمقام يحدد المقال من جهة أخرى، وأشهر ما اعتمدوه من الأقوال (لكل مقام مقال).

هناك نصوص قيمة وجدناها عند ابن جني وسيبويه وعبد القاهر الجرجاني تبين هذه المسألة، وتوضحها بشكل كبير، ومن هذه النصوص الدالة والمعبرة، نص أورده ابن جني في كتابه (المحتسب في تبيين شواذ وجوه القراءات و الإيضاح فيها)، وهو الآتي:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1692

«قال أبو الفتح: ينبغي أن يعلم ما أذكره هنا، وذلك أن أصل وضع المفعول أن يكون فضلة، وبعد الفاعل، كـ :(ضرب زيد عمراً)، فإذا عناهم ذكر المفعول قدموه على الفاعل، فقالوا:(ضرب عمراً زيدٌ)، فإذا ازدادت عنايتهم به، قدموه على الفعل الناصبة، فقالوا: (عمراً ضربَ زيدٌ)، فإن تظاهرت العناية به عقدوه على أنه ربُّ الجملة، وتجاوزوا به حدّ كونه فضلة، فقالوا:(عمراً ضربَهُ زيدٌ)، فجاؤوا به مجيئا ينافي كونه فضلة، ثم زادوه على هذه الرتبة، فقالوا: (عمرو ضرب زيدٌ)، فحذفوا ضميره ونوَوه، ولم ينصبوه على ظاهر أمره، رغبة به عن صورة الفضلة، ثم إنهم لم يرضوا له بهذه المنزلة حتى صاغوا الفعل له، وبنوه على أنه مخصوص به، وألغوا ذكر الفاعل مظهرا، أو مضمرا، فقالوا:(ضُرِبَ عمرُو».[4]

نلاحظ، أن هذا النص الوجيز، اشتمل على عدة أمور، نبينها كما يلي:

أ- ربط التركيب بالتداوليات، أو ربط البنية بالوظيفة، وهو من أهم المبادئ التي تقوم عليها اللسانيات الوظيفية.

ب- الوظيفة هي التي تحدد البنية، فابن جني، في هذا النص، يفسر الظواهر التركيبية الواردة فيه، من تقديم وتأخير وتبئير وتفكيك وحذف وإضمار وإظهار وغيرها، تداوليا ووظيفيا، أي باعتماد السياق والمقام.

ج- يفسر هذه التغييرات في الرتبة بمصطلح العناية، وهو وظيفة تداولية، ومصطلح العناية استعمله العديد من النحاة واللغويين والبلاغيين أمثال سيبويه وعبد القاهر الجرجاني.

د- وكأني بابن جني يقترح هنا سلّمية تراتبية (Hiérarchie) للبنيات التركيبية وسياقاتها التداولية، وفي هذه السلّمية، نجد على التوالي: الرتبة الأصلية، تم الخفق، ثم التبئير، وبعد ذلك يأتي التفكيك والحذف البناء للمجهول.

هـ- يتحدث ابن جني، في هذا النص، عن مستويات أو درجات من العناية، لم نجدها عند سيبويه ولا الجرجاني.

و- يتحدث هنا أيضا عن الرتبة الأصلية في اللغة العربية، والرتب الفرعية المشتقة منها، والرتبة الأصلية أو القاعدية (L'ordre basique)، في العربية هي: (فعل- فاعل– مفعول)، وهو ما أشار إليه بقوله: (ذلك أن أصل وضع المفعول أن يكون فضلة، وبعد الفاعل، كـ: ضرب زيد عمرا)، والرتب الفرعية تشتق من الرتبة الأصلية بواسطة مجموعة من التحويلات مثل التقديم والتأخير والتعويض والحذف والإضمار وغيرها، ولكن الذي يدعو إلى إجراء هذه التحويلات وهذه التغييرات في الرتبة، أو البنية التركيبية للجملة بشكل عام، إنما هو السياق، عملا بالمبدأ التداولي الوظيفي العام (لكل مقام مقال)، فالذي يحدد بنية المقال وصيغته وطبيعته هو المقام.

ز- استعمل ابن جني، في هذا النص القصير، عددا كبيرا من المصطلحات اللسانية، بعضها تركيبي، مثل: الرتبة، أصل الوضع (الرتبة الأصلية)، الفضلة، صاحب الجملة (العمدة)، صورة الفضلة، رب الجملة، الجملة، التقديم، الحذف، الضمير، الإعراب، الفعل، الفاعل، المفعول، الإظهار، النصب، وبعضها الآخر وظيفي تداولي مثل العناية، التخصيص.

هذا النص الذي أورده ابن جني في كتابه (المحتسب) فريد ورائع وفيه تفصيلات كثيرة، وإضافات قيمة لا نجدها في نص عبد القاهر الجرجاني الوارد في مبحث التقديم والتأخير، من كتابه (دلائل الإعجاز) لما حلل الجملة: (قتل الخارجيَ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1692

زيدٌ) وفسر تقديم المفعول به على الفاعل بالعناية والاهتمام.[5]

طبعا، إذا درسنا الجمل التي أوردها ابن جني في هذا النص قد نتفق معه في بعض الأمور، ونختلف معه في أمور أخرى، وهذا أمر طبيعي، فالدرس اللغوي تطور بشكل كبير جدا في أيامنا هذه، وظهرت اللسانيات الحديثة بصفتها علما دقيقا يدرس اللغة، ويدرس جميع الظواهر اللغوية على اختلاف مستوياتها بشكل علمي دقيق، أي الظواهر الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية والتداولية، ويدرس أيضا الجوانب التصورية والمعرفية والحجاجية والخطابية للغات البشرية، ولكننا متفقون معه كل الاتفاق بخصوص المبدأ الوظيفي العام الذي يربط البنية بالوظيفة، والتركيب بالتداوليات.

نعم، مع ظهور اللسانيات التوليدية التحويلية مع تشومسكي، التي عنيت أساسا بالتركيب، واللسانيات الوظيفية بمختلف نماذجها ونظرياتها، والتداوليات، واللسانيات المعرفية والحاسوبية وغيرها، فإن الجمل والأمثلة التي حللها ابن جني في هذا النص، وبيَّن خصائصها التركيبية من جهة، وخصائصها التداولية والوظيفية من جهة أخرى، سندرسها نحن الآن على وجه أفضل، وبشكل دقيق ومفصل.

فهناك أنماط من التقديم، ولكل نمط اسمه وخصائصه التركيبية والوظيفية، وهناك أنواع من الرتب، وأنواع من البنى اللغوية، ولكل نوع من أنواع الرتب، أو نمط من أنماط البنى اللغوية خصائصه اللغوية، وتفسيره التركيبي والوظيفي.

والجمل التي أوردها ابن جني في هذا النص فيها ظواهر تركيبية عديدة: تقديم و تأخير و خفق وتبئير وتفكيك وحذف وإضمار وبناء للمجهول وإعراب وغير ذلك.

ولكن الفكرة الملفتة في النص، أو المبدأ اللغوي الثاوي وراءه، هو أن كل تغيّر في المبنى يلزم عنه تغيّر في المعنى ويطابقه، وبعبارة أخرى، الوظيفة تحدد البنية، والتداول يحدد التركيب.

وإذا عدنا إلى الأمثلة الواردة في النص فسنقول: إن جملة: (ضرب زيدٌ عمراً) من الناحية التركيبية، فيها الرتبة الأصلية، أو الرتبة القاعدية، وهي (ف- فا- مف). وهذه الرتبة هي الأصل في العربية، والرتب الأخرى فرعية ومشتقة منها، وقد أكد هذا كثير من اللسانيين العرب، وفي مقدمتهم الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، ودافعنا عنها نحن أيضا، في محاضراتنا ومقالاتنا[6]، وهناك أدلة صرفية وتركيبية ودلالية و تداولية تؤكد أصلية هذه الرتبة في العربية، وقد أشار ابن جني أيضا إلى أصليتها في النص الذي نحن بصدد تحليله لما قال: (وذلك أن أصل المفعول أن يكون فضلة، وبعد الفاعل، كـ: (ضرب زيد عمراً)، إذن هذه الجملة فيها الرتبة الأصلية تركيبيا وتداوليا يوافقها سياق الإخبار بالجديد.[7]

أما الجملة الثانية: (ضرب عمراً زيدٌ)، ففيها تقديم المفعول به على الفاعل، أي من الناحية التركيبية. وهذا التقديم يسمى الخفق (Le brouillard)، ومن الناحية التداولية، يناسبها سياق آخر، وهو سياق العناية والاهتمام بالمفعول به، ولذلك قدم على الفاعل.

وإذا انتقلنا إلى الجملة الثالثة: (عمرا ضرب زيدٌ): فنجد فيها نمطا آخر من التقديم، وهو تقديم المفعول به على الفعل و الفاعل ويطلق عليه اسم التبئير (Focalisation)، وهذا من الناحية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1692

التركيبية، أما تداوليا، فيناسبها سياق تداولي مختلف، هو سياق التصحيح، أو سياق رفع الشك والالتباس، وقد ميز سيمون ديك (S.Dik) صاحب النحو الوظيفي بين نوعين من البؤرة: أ- بؤرة الجديد، ونجدها في الجملة الأولى:(ضرب زيدٌ عمراً)، والبؤرة هنا هي كلمة (عمراً)، وترد في آخر الجملة، ب- بؤرة المقابلة (أو التصحيح)، ونجدها في الجملة الثالثة: (عمراً ضرب زيدٌ)، وإذا أردنا أن نوضح هذا بشكل جيد، فسنلجأ إلى رائز التعقيب، لنبين أن السياق سياق تصحيح، وليس سياق إخبار بالجديد، فنقول:(عمراً ضرب زيد، لا خالداً)، والنبر الموجود في بؤرة المقابلة يختلف عن النبر الموجود في بؤرة الجديد، والسياق هنا، إما سياق التصحيح، إن أخطأ المتكلم، فقدم معلومة خاطئة كأن يقول:(ضرب زيد خالداً)، فيقول له المخاطب معقبا مصححا (لا، عمراً ضرب زيد)، وإما سياق الشك والتردد فيقدم المفعول به على الفعل و الفاعل (أي التبئير) لإزالة الشك، ورفع الالتباس.

أما الجمل الأخرى، أي الواردة في نص ابن جني، ففيها ظواهر تركيبية أخرى مثل التفكيك والاشتغال والبناء للمجهول، ولابد من التمييز بين التقديم والابتداء والاشتغال فلكل نمط من هذه الأنماط خصائصه التركيبية والدلالية والتداولية، وهناك أيضا ظاهرة التفكيك(La dislocation)، بكل أنواعها وأنماطها، ولها خصائص مختلفة عن الظواهر التركيبية السابقة.[8]

وهذا النص يبيّن لنا حضور التداوليات في التركيب، ونحن نعلم أن التداوليات حاضرة في كل المستويات اللغوية: المستوى الصوتي والصرفي والمعجمي والتركيبي والدلالي، وبعبارة أخرى، فإن التداول مؤشر له في بنية اللغة، ونحن ندافع عن فرضية التداوليات المدمجة التي اقترحها أزفالد ديكرو منذ زمن بعيد، أي أن التداوليات مدمجة في الدلالة[9]، هناك من يقول بإدماج الدلالة في التداوليات (موقف كاتز مثلا)، وهناك من يقول باستقلالهما (موقف شارل موريس)،ونحن لا نكتفي بهذا، وإنما نقول إن التداوليات مدمجة في كل المستويات اللغوية: أصواتا وصرفا وتركيبا ودلالة.

وابن جني، في هذا النص، يدافع عن ارتباط التركيب بالتداوليات، وحضور التداوليات في التركيب من جهة، وأن التداوليات هي التي تحدد طبيعة التركيب من جهة أخرى.

وقد أشرنا سابقا إلى حضور التداوليات في المستوى الصوتي، أو المستوى التطريزي بشكل خاص (La prosodie)، من خلال حديثنا عن النبر (L'accent)، فالنبر الذي نجده في بؤرة الجديد نبر عادي، وهو يختلف عن النبر الذي نجده في بؤرة المقابلة، أو بؤرة التصحيح، وهو نبر قوي، أو نبر شدة، والبؤرة وظيفة تداولية حسب سيمون ديك، وهذا اللغوي يميز بين أربع وظائف تداولية؛ وظيفتان تداوليتان داخليتان (أي داخل البنية الحملية)، وهما وظيفة المحور ووظيفة البؤرة، ووظيفتان خارجيتان؛ وظيفة الموضع و وظيفة الذيل.

وإلى جانب الوظائف التداولية، هناك الوظائف التركيبية (فاعل، مفعول..)، والوظائف الدلالية (المنفذ، المتقبل، الأداة...).

وما فعله ابن جني عندما ربط البنية بالوظيفة، أو التركيب بالتداوليات، وجدناه عند سيبويه في الكتاب، لما درس مسألة التقديم والتأخير، بالضبط عند تناوله مسألة جواز تقديم المفعول به على الفاعل في الجملة التالية: (ضربَ عبد الله زيداً)، ففسر هذا التقديم بمفهوم العناية والاهتمام فقال: (فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل، جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك قولك: ضرب زيداً عبد الله،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1692

لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه، وإن كان مؤخرا في اللفظ. فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدما، وهو عربي جيد كثير، كأنهم (إنما) يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم و يعنيانهم).[10]

وهو أيضا المبدأ التداولي الذي فسر به تقديم المفعول على الفعل (أي ما يسمى بالتبئير)، يقول سيبويه بهذا الصدد: (وإن قدمت الاسم فهو عربي جيد، كما كان ذلك عربيا جيدا، وذلك قولك: زيداً ضربت، و الاهتمام و العناية هنا في التقديم و التأخير سواء مثله في: ضرب زيد عمراً، و ضرب عمراً زيد).[11]

وهذا الذي وجدناه عند النحاة واللغويين أمثال سيبويه وابن جني، نجده أيضا عند البلاغيين، وخاصة عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز)، في الفصل الذي عقده للحديث عن التقديم والتأخير، إذ يقول: «واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئا يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام (...)، وقال النحويون: إن معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه، ولا يبالون من أوقعه كمثل ما يعلم من حالهم في حال الخارجي يخرج فيعيث ويفسد ويكثر به الأذى، إنهم يريدون قتله، ولا يبالون من كان القتل منه، ولا يعنيهم منه شيء، فإذا قتل، وأراد مريد الإخبار بذلك، فإنه يقدم ذكر الخارجي، فيقول: قتل الخارجي زيدٌ، ولا يقول: قتل زيد الخارجي، لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعملوا أن القاتل له زيد جدوى وفائدة، فيعنيهم ذكره، ويهمهم ويتصل بمسرتهم، ويعلم من حالهم أن الذي هم متوقعون له، ومتطلعون إليه متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد، أنهم قد كفوا شره وتخلصوا منه».[12]

فالجرجاني يفسر تقديم المفعول على الفعل بالعناية و الاهتمام، مثل ابن جني وسيبويه، والعناية والاهتمام وظيفة تداولية تواصلية، وهو الذي يستوجب تقديم المفعول، وتأخير الفاعل، فالتداول يفسر التركيب، والوظيفة تحدد طبيعة البنية، والجديد في هذا النص، أن الجرجاني أعطانا السياق التداولي الذي أنتج فيه هذا القول: (قتل الخارجيَ زيدٌ) بكل عناصره ومكوناته، ومنها: أغراض الناس، المعرفة المشتركة، وغير ذلك، بالإضافة إلى مسألة العناية و الاهتمام.

والجرجاني، مثل ابن جني، يفسر عددا كبيرا من الظواهر التركيبية من تقديم وتأخير وحذف وإضمار ووصل وفعل وغيرها بالعناية والاهتمام، فالأمر هنا، يتعلق بوظيفة تداولية، أو بمبدأ تداولي عام، يقول الجرجاني: «وكذلك صنعوا في سائر الأبواب، فجعلوا لا ينظرون في الحذف والتكرار، والإظهار والإضمار، والفصل والوصل، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه، إلا نظرك فيما غيره أهم لك».[13]

3- ظواهر تداولية أخرى:

لقد تم التركيز في المباحث السابقة، على وظيفة اللغة، وعلاقة البنية بالوظيفة، ولكن لا يعني هذا أنهما المبحثان التداوليان الوحيدان في أعمال ابن جني، فهناك ظواهر وموضوعات تداولية كثيرة، عالجها ابن جني في مؤلفاته، وخاصة في كتابه الموسوعي (الخصائص)، ومنها مسألة السياق أو المقام، والأفعال اللغوية، والاستلزام الحواري التخاطبي، والتواصل اللغوي وغير اللغوي، وغيرها من الظواهر.

وإذا عدنا إلى ظاهرة الاستلزام التخاطبي الحواري، التي درسها اللسانيون والتداوليون وفلاسفة اللغة العادية،[14] منذ البحث الذي نشره

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1692

بول غرايس (P.Grice) بعنوان: (المنطق و الحوار) سنة 1975[15]، وقدمت مقترحات عديدة، في هذا السياق، لكل من غرايس وسورل وكَوردن ولايكوف وآخرين، وهذه الظاهرة تتجلى في أن كثيرا من الأقوال و الجمل في اللغات الطبيعية، إذا ما نظرنا إليها، في علاقتها بمقاماتها وسياقاتها التداولية، فإننا نجد أنها تفيد معنى آخر، غير المعني الذي يدل عليه ظاهر الجملة، ونجد هذا، بالخصوص، في الجمل الإنشائية أو الإنجازية التي تتضمن فعلا لغويا من قبيل الأمر والاستفهام والنهي والتعجب والنداء وغيرها، وإذا أخذنا جملة من قبيل (هل تستطيع أن تناولني القلم؟) فإن الجملة استفهامية في الظاهر، أو بحسب صيغة الجملة، ولكنها طلبية اِلتماسية بحسب الفعل اللغوي المنجز، وبحسب السياق والمقام، فالمعنى الظاهر هو الاستفهام، والمعنى الضمني المقصود، المتولد من الأول، هو الطلب والالتماس.

والاستلزام الحواري درسه عدد من اللغويين والبلاغيين العرب القدماء، ومنهم ابن جني الذي نورد له نصّا جديرا بالنظر والتحليل مِن كتابه (الخصائص) في باب (إقرار الألفاظ على أوضاعها الأول، ما لم يدع إلى الترك و التحول)، يقول ابن جني: «واعلم أنه ليس شيء يخرج عن بابه، إلى غيره إلا لأمر قد كان – وهو على بابه – ملاحظا له، وعلى صدد من الهجوم عليه، وذلك أن المستفهم عن الشيء قد يكون عارفا به مع استفهامه في الظاهر عنه، لكن غرضه في الاستفهام عنه أشياء، منها: أن يري المسؤول أنه خفي عليه ليسمع جوابه عنه، ومنها أن يتعرف حال المسؤول: هل هو عارف بما السائل عارف به؟ ومنها أن يُرِي الحاضر غيرهما أنه بصورة السائل المسترشِد، لما له في ذلك من الغرض، ومنها أن يعد ذلك لما بعده مما يتوقعه، حتى إن حلف بعد أنه قد سأله عنه حلفا صادقا، فأوضح بذلك عذرا، ولغير ذلك من المعاني التي يسأل السائل عما يعرفه لأجلها و بسببها، فلما كان السائل، في جميع الأحوال، قد يسأل عما هو عارفه، أخذ بذلك طرفا من الإيجاب، لا السؤال عن مجهول الحال.[16]

وهناك ظواهر تداولية درسها ابن جني، في أماكن عديدة من كتابه (الخصائص)، وفي مؤلفاته الأخرى، سنعود إليها في أبحاث قادمة.

الخاتمة:

لقد وقفنا، في هذا البحث، عند بعض الظواهر التداولية التي عالجها ابن جني، وخاصة مسألة وظيفة اللغة، وأشرنا إلى اختلاف اللسانيين وفلاسفة اللغة بخصوص هذا الموضوع، فمنهم من يقول إن وظيفة اللغة هي التمثيل و التعبير عن الفكر، ومنهم من يقول إن وظيفتها الأساسية هي التواصل، ورأينا أن ابن جني، يشير بشكل واضح، إلى أن وظيفة اللغة هي التواصل، من خلال تعريفه للغة بأنها: (أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم).

وعالجنا أيضا علاقة التركيب بالتداوليات، أو البنية بالوظيفة، وابن جني يرى أن هناك علاقة وثيقة بينهما، ويرى أيضا أن الوظيفة هي التي تحدد البنية، وأن المقام يحدد المقال، وليس العكس، وكان يفسر تنوع الرتب- في المستوى التركيبي- تداوليا وظيفيا، أي يفسرها بالمقام والسياق، من خلال مفهوم العناية، وهناك ظواهر تداولية أخرى أشرنا إليها بإيجاز.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1692

الهوامش والإحالات.

1-يرجع إلى "محاضرات في التداوليات" لكاتب البحث، طلبة الإجازة في شعبة اللغة العربية، (تخصص لسانيات)، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، بني ملال، المغرب،2018، وكذا أعمال أوستين و سورل و ديكرو و غرايس وريكاناتي وغيرهم.

2- المرجع السابق.

3- ابن جني: الخصائص، 1/.33

4- ابن جني: المحتسب في شواذ وجوه القراءات و الإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي ناصف وآخرون، وزارة الأوقاف المصرية 1994، 1/.65

5- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص:.83

6- عبد القادر الفاسي الفهري: اللسانيات و اللغة العربية، الجزء الأول، الفصل الخاص بالرتبة في اللغة العربية، وانظر: (محاضرات في التركيب) طلبة الإجازة في شعبة اللغة العربية، لكاتب البحث.

7- محاضرات في التداوليات.

8- عبد القادر الفاسي الفهري، المرجع السابق.

9- انظر أعمال ديكرو و أنسكومبر آخرين، وكذلك (محاضرات في التدوليات).

10- سيبويه: الكتاب، 1/.34

11- المصدر السابق، 1/80-.81

12- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص:.83

13- المصدر السابق.

14- انظر الأعمال المنجزة حول الاستلزام الحواري عند غرايس، أو التضمين عند أزفالد ديكرو، أو الأفعال اللغوية غير المباشرة عند سورل. و الابحاث التي أنجزها آخرون أمثال جورج لايكوف وگوردن.

15- بول غرايس: المنطق و الحوار، ضمن:
Cole P. and Morgan J.: Syntax and semantics, Academic Press (eds.),vol: 3

16- ابن جني: الخصائص، 2/464-465.

المراجع: المراجع العربية:

-الجرجاني عبد القاهر "دلائل الإعجاز"، طبعة رشيد رضا، ط6، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، 1960.

- ابن جني أبو الفتح: "الخصائص"، تحقيق محمد علي النجار، ط2، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت. 1952.

- ابن جني أبو الفتح: "المحتسب في تبيين شواذ وجوه القراءات والإيضاح عنها"، تحقيق علي النجدي ناصف وآخرون، وزارة الأوقاف المصرية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1994.

- السكاكي: مفتاح العلوم، القاهرة، د.ت.

- سيبويه: أبو بشر عمرو: الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1988.

- العزاوي أبوبكر: نحو مقاربة حجاجية للإستعارة، المناظرة، العدد: 4،1991، الرباط.

- العزاوي أبوبكر: الحجاج و الشعر، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد: 7، 1992، فاس.

- العزاوي أبوبكر: اللغة و الحجاج، الأحمدية للنشر، البيضاء،2006.

- العزاوي أبوبكر: الخطاب و الحجاج، الأحمدية للنشر، البيضاء،2007.

- العزاوي أبوبكر: حوار حول الحجاج، الأحمدية للنشر، البيضاء،2010.

- العزاوي أبوبكر: اللغة و المنطق، طوب بريس، الرباط،2014.

- العزاوي أبوبكر: محاضرات في التداوليات، كلية الآداب، بني ملال.

- العزاوي أبوبكر: الحجاج في اللغة و البلاغة، فصول، العدد:101 ، القاهرة، 2018.

- الفاسي الفهري عبد القادر: اللسانيات و اللغة العربية، (2ج)، منشورات توبقال، الرباط.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1692

المراجع الأجنبية:

-Anscembre J.C et Ducrot. O (1983): Largumentation dans la langue, Ed. Mardaga ،Bruxelles.
- Austin. J.L (1970): Quand dire, C est faire, seuil, paris.
- Azzaoui boubker (1990): Quelques conneteurs pragmatique en arabe littéraire: Approche argumentative et polyphonique, thrés de doctorat (P.H.D), EHESS, paris.
- Azzaoui, boubker (2014): Argumentation et enonciation, Ed. Top presse, Rabat.
- Dik. Simon (1978): functional grammar, North, Holland.
-Dik. S (1980): Studies in functional grammar,Academic Press, london.
- Ducrot. O (1972): Dire et ne pas dire, Hermann, Paris.
- Ducrot. O (1980): Les échelles argumentatives, Minuit, Paris. Et al.
- Grice.P (1975): « logique et conversation », Communications, paris.N:30.
- Searle. J.(1972): Les actes de langage, Hermann, Paris.
- Searle. (1985): Sens et expression, Minuit, Paris.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1692